

## ذكر جان جاك روسو

(تابع ما قبله)

(٩) القدر الروسي روسو

اما الفرنسيون الذين تفرغوا لدرس روسو منهم بزوتبير وسانت تيرث وكلاهما تكلم عنه عرضاً اثناء البحث في تاريخ آداب اللغة الفرنسية. ولم يقولوا عنه خيراً كثيراً لان الناقد الفرنسيين صابون بدهاء الغمز واللمز غمست الطبيعة اقلابهم في مداد السحرية ومعظمهم يهدمون ولا يقدمون على التشييد ولهدين الناقدون ثأر قديم في عنق روسو لانه ليس فرسوياً الاً بلسانه وقلبه ولكنه ترك اعظم اثر في فرنسا. اضف الى هذا ان هذين الناقدين هما من صفوة اواخر القرن التاسع عشر وكانا يطبقان طرق البحث العلمية في نقدهما وهي طرق ذات قوانين لم يدركها روسو. كان روسو كاتب الوجدان يحادث القلوب ولكن الجيل الحاضر يطلب كتاباً يحادثون العقل. ولا ريب في ان رجلاً يكتب عشرين صحيفة في وصف امرأة قبل محادثتها واربعين في الكلام على كوخ صغير لا يروق في نظر ابناء هذا العصر. ثم ان رجلاً يكشف عن نفسه كما يكشف عن بدنه ويدعو الناس لمشاهدته والضحك منه والبكاء عليه لا يكون محبباً في عصر يستلزم اخفاء شخصية الكاتب على قدر الامكان. كان روسو يكتب عن نفسه وعن عواطفه وعن تجاربه وعن ملاذمه وعن آلامه عن حسناته وعن سيئاته عن عواطفه وشحوته والمدارس الادبية الجديدة تقتضي ان يكتب الكاتب عما يشاهده في غير ذاته بعيداً عن نفسه قدر المستطاع. فهناك اذن خلاف في المبدأ بين روسو وبين ناقديه السابق ذكرهما اما اميل فاحيه العضو الشهير في الاكاديمية ومؤلف الاربعين كتاباً في علوم وآداب شتى فان رأيه في روسو لا يمكن ان يكون حجة لانه ليس حجة في شيء الاً في نحو اللغة الفرنسية وقواعد اعرابها ووزن جملها وتنسيق الفاظها وغداً ذلك فهو بحاث تام يأخذ من كل شيء طرفاً ولا يتعمق في شيء ومؤلفاته تدل عليه فانه لم يدون كتاباً علمياً ولا تاريخاً محققاً انما له ملاحظات على كل شيء وقد دون كتاباً عن روسو مثل الذي دونه لامارتين لاسي عن شغفه واحكامه وروحه

صادقة في البحث في روسو ومؤلفاته ولكن كما الف لامارتين كتاباً في تاريخ الترك. اننا نجد روح لامارتين في مؤلفاته التي اعدته لها الطبيعة بفطرتة وقد اعدته للشمر فاقرأه في قصيدة البحيرة واقرأه في مناجاته ولكن لا تحاول ان تلتقي له علماً نافعاً في مبادئ روسو

اما جول ليمتر فكتابه في جانب خاص به . لان الظروف التي احاطت بتأليفه مدعاة للريب والشك في اخلاص المؤلف وصدق . اقول اولاً ان ليمتر لم يكتب كتاباً عن روسو انما سلسلة مقالات قاذحة . تناول فيها عقل روسو وعلمه وشرفه وذهبه وعرضه ومزق منها ما استطاع تمزيقه ولطخ ما استباح تلطيخه . واعطى تلك الرسائل صبغة عامة لانه القاها محاضرات متوالية على جمهور من مريديه ومريداته وقد تحامل فيها على روسو كانه عدو له يسمى ويرزق ويحارب . ولكن الشك يتسرب اليها من امرين الاول تاريخ تأليف هذا الكتاب والثاني المناورات التي قام بها هذا الاديب لدى الاحتفال بتمجيد روسو

لقد صار ليمتر منذ بضع سنين من انصار الدوق دورليان وهو يعلم قدر نفسه وقدر تأثير قوله في اذهان البسطاء فلو انه قام وناصر مذهباً دون مذهب بمجرد القول المطلق فلربما قل انصاره ووجد خصومة مطعناً ولكنه لو سعى في هدم معتقدات الناس في شخص اكبر ممثل للافكار التي امسى ليمتر من اعدائها فانه لا شك يكون نصيبه من التفات القوم اوفر . والامر الثاني وهو ما قام به من محاربة فكرة تمجيد روسو فاننا لو زعمنا اخلاصه وتناوله الفيلسوف الراحل بقصد البحث ليس الا ما رأيناه يكلف نفسه عناء المعاداة الفعلية بعد ان مضى اكثر من خمس سنين على كتابه . انما كان روسو آلة سياسية يحارب بها الاستاذ ليمتر خصومة وخصوم دوق اورليان السياسيين وهدفاً للسهام التي يريد تصويبها الى صدور هؤلاء الخصوم

اما الكتب التي وصفها ريترو وادوار رود وامليل بوفيه ففيها ايضاً نظر لان الثلاثة من ابناء وطن روسو وادوار رود سويسري من مقاطعة فو التي عاصمتها لوزان وبوفيه استاذ الآداب في مدرسة جنيف الجامعة . وهو من أئمة الجمعية الشهيرة التي اسست منذ نيف ولعشرين سنة وغايتها استقصاء اخبار روسو وتبعية اقواله وتاريخه وتقلب اطواره ونشوء آرائه وافكاره . ويمكن ان ينسب الى

بوقبيته شيء من مظاهره هذا الجهد العقلي الذي يشرف بالانتماء الى وطنه وبلده. ولكنه مع كل ميله الى جانب روسو اميل الى العدل من الناقد اللطيف جول ليمتر هذه نظرة وجيزة في آراء الذين عنوا بدرس روسو ومبادئه ولا نستطيع ان نلم باقوالهم قاطبة. لان حاسديه اكثر من ناقديه وناقديه اكثر من خريديه وهذا لانه احدث انقلاباً في كل شيء. لاجل ذلك لم يجمع القوم على مدحه كما انهم لم يجمعوا على ذمه فاختلقت الاقوال وتضاربت الآراء في هذا المعتبري والبيك شذرات يسيرة مما عثرت عليه عرضاً في الكتب قاطها المشاهير فيه مدحاً وذمماً. وقد اردت بها ان تكون نموذجاً لاختلاف الاقوال في شخص واحد كلما طال عهده ازداد عرفان الناس جميله وفضله

(١٠) آراء النقاد مدحاً وذمماً

قال احدهم « كان جان جاك طول حياته على وتيرة واحدة ميالاً الى الحق والصراحة والبساطة نيتة صالحة فلا يتصنع ما يستر به عيوبه ولا ما يظهر به فضائله وعذر قادحيه يرجع الى جهلهم به لان الطبيعة لم تهب جميع الناس صفات تؤهلهم لادراك سمو نفس روسو ولا يمكن الحكم على النفوس العالية الا بمن يماثلها »

وقال فولتير يذمه « انني ابغض كتبه وابغض ذاته. ان مؤلف هلويزا الجديدة ليس الا هذاراً شريراً ومن تكبد الدنيا على الفلسفة كون روسو مجنوناً ولكن بما يزيد في الحزن عليها انه غير امين » وقال فولتير ايضاً « من الغفائح ان يكتب هلقوت مثل روسو كتاب التفكير ساقويار. ان هذا الشقي يسيء الى الفلسفة ولكنه بالنسبة الى الفلاسفة كالقردة بالنسبة للبشر » وقال ايضاً « انه محتمل خطير وشقي يتقى. ماذا ينتظر العالم من هلقوت يقول في كتيب اسمه "Je ne sais quel Emile" ان ولي المهد يمكن ان يكون موفقاً في زواجه لو انه اقترن بابنة الجلاد. ان هذا المجنون الذي لا نستطيع تعليل اقواله لا شك قد انحدر ايضا في خط مستقيم من نسل كلب ديوجنس »

ويليق بنا ان نسمي هذا الباب باب المحاسن والاضداد. فقد قال نابوليون بوناپرت ان روسو هو الذي اعد الانقلاب الاجتماعي السياسي الذي حدث في فرنسا. لله ما اشد حذقه وما اعلى كعبه في اقامة الحججة وما اجل اسلوبه في

« نوثيل هلويز » وتكته افاض في البحث اكثر مما كان ينبغي له . انه صور لنا الحب في شكل الجنون على ان الحب يلزم ان يكون مسرة لا عذاباً اليماً . ان في هذا الكتاب كجساً من النار . انه يحرك النفس ويقلقها . الحب الكامل مثل اعلى . لذا كان العاشقان الموصوفان في كتاب روسو من عالم الخيال لا من عالم الحقيقة وقال عنه ديدروه : انه يعلق نفسه بالفصاحة اكثر مما يعلقها بالحق ويعنى بالتزويق اكثر مما يعنى بالمنطق لذا تدهش لدى قراءة كتبه ولكنك لا تستفيد نوباً . وقال عنه كانت الفيلسوف الالماني الشهير : — ان اول ما يشعر به القارئ الجدي الذي لا يقرأ للتسلي او لقتل الوقت انه حياي نفس خارقة وذكاء نادر ذي عبقريّة صادقة تعذبها رقة عواطفها ودقة احساسها

وقال لامارتين : نفس جذباء لا تنمو فيها الفضيلة ولكنها خصبة بالكلام المصنف والجل المنسقة . نفس تتظاهر بالتجمل بالفضائل ولكن الرذائل تنهشها . نفس يستر عيوبها الغرور وتلجأ الى عذب الكلام لتخفي مر الخصال وقال ميشليه المؤرخ الفرنسي الشهير : — ان روسو ابكى الانسانية باعترافه بتأملاته . لقد انتصر على العالم بضعفه . ان ذلك الصوت القوي المؤثر وتلك الموسيقى التي تصل الى القلب سوف تبلغ قوتها اشدها بعد ان يحجبها القبر عن الأذان . ان ظهور الاعتراف بعد وفاة روسو كأنه آهة صاعدة من الجذث الذي ضم رقائه . انه حاد الى العالم بقوة اعظم من قوته الاولى محاطاً باعجاب القوم وتعظيمهم وقال سانت بيث الذي سبق الكلام عليه : — ان خطأ روسو لم يكن في نشر اعترافه على رؤوس الاشهاد واعتقاده انه قام بعمل مفرد او بدرس عجيب في اطوار القلب البشري ولكن خطأه كأن في انه ام عملاً نافعاً . مثله كمثل الطبيب الذي منحتة الطبيعة قلماً سيالاً واسلوباً فنياً فافرج جهده في وصف مرض عقلي وابدع الوصف بحيث اصبح المرض العقلي محبباً لدى كل من يقرأ وصفه ثم عرض كتابه على الطبقات قاطبة فيمسي مسؤولاً عن كل الذين جنوا تقليداً او اصابتهم عدوى الكتاب

وقال جول سيمون : يظهر لي ان قول بعضهم الاسلوب مرآة الكاتب وضع له خاصة . وصدق ذلك ظاهر في انك لا تطالع صحيفة مما دونة روسو دون ان تعيد على ذهنك كتاب الاعتراف كله الذي وصف فيه نفسه بصدق واخلاص

وهذا انتهى امينته . اراد ان يظهر امام الاجيال القادمة كما يود ان يقوم بين يدي الله وكتابه في يده .

وقال موديس باريس : خطر بعقل روسو المستبد بفكره انه يستطيع خلق حياة اجتماعية اصح واقوى من المجتمع الذي يرجع اصله الى ثانيا الدهر العميقة الخفية فما اعجب هذه الثقة العمياء بالذات . ان روسو يجهل طرق البحث العلمي فلا يشاهد ولا يلاحظ ولكن يبصر بالاشياء بعين الخيال

وقال الفونس دوديه الكاتب الشهير : لقد وصف تين - نفس روسو بانها نفس خادم صغير وهذا الوصف غير خايق بعقل سام كعقل واضعه . ان تين يناصر الطبقات الفنية ليخذل الكاتب الفلسفي الذي ثارت نفسه ضد المجتمع البشري بعد ان خبره وزهد فيه فاعرض عنه . ان كانت نفس روسو صغيرة فما قولكم في نفس فولتير ودالمبرت وديدروه ؟ » اه

وانني ارى حبل المحاسن والاضداد يطول لو شئنا ان ننقل معظم ما قاله انصاره وخصومه . وقد يشكل الامر على القارئ بعد ان يرى تضارب الاقوال ولذا سادله على الميزان الذي لجأت اليه لاستبانة الرأي الصواب وهو ان ننظر الى من قالوا فيه خيراً ومن قالوا ضد ذلك . فترى لاول وهلة انصاره امثال ميرابو ونابوليون وكانت وشيلر وميشليه وول سيمون وبرتو العالم الطبيعي الشهير اما خصومه فاقبل قدراً من هؤلاء واليك اسماءهم : ديدروه وسنت ييف وموديس باريس وبرونتيير وقد بقي له خصم واحد يعادل بقية خصومه وهو شريكه في تكوين الفكر الاوربي الحديث وهذا الخصم هو فولتير . وقد ثقات بعض ما قاله فيه وهو ايضاً يسبه ويشتمه ولا ينتقده ولا شك عندي في ان غير المهنة والمزاحمة على الشهرة الدائمة هما اللتان سببتا هذا العداء التوتيري ولكن مهما كان سبب تلك المضاغنة فاهي الفاظ ولتير انه يقول عنده انه هلقوت وانه شقي وانه مهذار وانه محتمل خطر وانه ابن كلب ديوجنس الفيلسوف الاغريقي . ان مثل هذه الشتائم من فم طانية فيرنيه ذي القامة القصيرة والانف الاقنى والبسمة الشيطانية المملوءة بالتهكم والازدراء والخبث والذقن المقوسة غير جذيرة بقدره ولا ينحسر منها على شهرة جان جاك ذي الوجه المليح والقلب السليم والعقل الراجح وانني اريد ان الفت النظر الى امر مهم وهو انني لست من انصار روسو

المتعصبين له إنما حكم عدل بين انصاره وخصومه وناقد دقيق لكتبه ومبادئه ولا اخني باعتقادي انه افاد اهل عصره والاجيال التالية فوائد جمة كما انه اضر بها بعض الضرر. لكن من من الحكماء بل اي مذهب له محاسن وليس له اضرار. ومهما تكن نتيجة الحكم على روسو فان القارىء قادر ان يصدر حكماً تمهيدياً في مصلحته وهو انه كان رجلاً عظيماً وهادياً ومرشداً وكان محباً للحقيقة ساعياً في آثارها ومنقياً عنها وانه كان بلا شك باعظم من اعظم اعدائه.

محمد لطفي جمعة

## بعض المفارقات

اطلعنا على خطبة للمستر همفريز بهذا العنوان فاقنطعنا منها ما يلي لما فيه من الفائدة والفكاهة

### ١ - المطر يجفف الهواء

ان قولنا ان المطر يجفف الهواء يظهر في بادىء الامر مناقضاً للمألوف ولكن هذا هو الواقع فان سطح الماء يتبخّر دائماً ويصعد الى الهواء فيحمله حسب درجة حرارته ولذلك قلما يخلو الهواء من الرطوبة في الاحوال العادية ولكن اذا برد الهواء او اتق له ما يحول هذه الرطوبة مطراً عاد الهواء جافاً كما كان قبلما وصل البخار اليه ولذلك يصح قولنا ان المطر يجفف الهواء

### ٢ - مقدار الهواء الذي يرتفع اعظم من الذي يهبط

ان التناقض في هذا القول بين جلي لانه يخالف المعتقد الشائع القائل ان ما يرتفع يهبط كله ولكي تتمكن من تعليل صحة القول الاول يتعين علينا ان نقسم البحث الى قسمين

اولاً بالنسبة الى الحجم. ان حركات الهواء العمودية ناتجة عن هبوط الهواء البارد الكثيف وارتفاع الهواء الساخن المتمدد اللطيف. فاذا كانت زنة الهواء المرتفع والهواء الهابط متساوية يكون حجم المرتفع اعظم من حجم الهابط ثانياً بالنسبة الى الزنة. يظن الكثيرون ان زنة هذين المقدارين من الهواء يجب ان تكون متساوية مهما اختلفت نسبة حجميهما ولكن هذا غير الواقع لان